



٦- الفن

للطاب الفرنسي بول مبرزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

إن ما يعيب بعض المصورين المعاصرين عندما يريدون تصوير خيول تمدو هو أنهم يمثلونها في أوضاع أخذت في لمح البصر .



سباق إسوم (للمصور جريكول)

انتقد جريكول (Gericault) لأنه صور بلوحته الموجودة باللوفر وهي « سباق إسوم » خيوله تمدو وقد تمططت جسموها حتى لتكاد تلامس بطونها الأرض ، رامية بقوائمها الأمامية إلى قدام وبالحلفية إلى وراء في نفس اللحظة . ويقال إن لوح الفوتغرافية الحساس لا يعطي مثل هذه النتيجة . وحقيقة ما نرى في التصوير الفوتغرافي هي أنه عندما تكون قوائم الحصان الأمامية إلى قدام يكون للقوائم الخلفية التي دفعت الجسم إلى الأمام بطبيعة وضعها وقت التجمع تحت الجسم لإعادة الكرة ، فتكون بذلك القوائم الأربع متجمعة مع بعضها في الهواء في وقت معين ، ويبدو الحيوان كأنه يقفز من على الأرض وكأنه بغير حراك وهو في ذلك الوضع .

« وأعتقد الآن أن جريكول هو المصيب وأن المدسة هي المخطئة لأن خيوله تظهر كأنها تمدو . ويتبين ذلك عندما يتتبع الناظر اللوحة من اليمين إلى الشمال ، فيرى أول ما يري القوائم الخلفية تنجز ذلك الجهد الذي تنشأ عنه القوة الدافعة العامة ، ثم يري بقية الجسم ينسبط ويتمطط ، وأخيراً يري القائمتين الأماميتين ممدودتين وهما تهويان إلى الأرض . وهذا خطأ في الواقع ، لأن هذه الحركات لا يمكن أن تحدث في وقت واحد ، ولكنه صواب إذا ما لوحظت الأجزاء على التتابع ، وهذا الصديق وحده هو الذي يعيننا لأنه هو الذي نراه ونشأ به . لاحظ إلى ذلك أن المصورين والمثاليين الذين عندما يؤلفون بين الأوجه المختلفة لحركة ما في صورة أو تمثال معين لا ينزلون في ذلك على حكم العقل أو المهارة الفنية ولكنهم يعبرون بكل بساطة عما يشعرون به فترى عقولهم وأيديهم كأنما تنساق في اتجاه الحركة فيعبرون عن تطورها بالفريزة .

ورى هنا - كما هو الحال في كل ميادين الفن - أن الإخلاص وحده هو القاعدة الوحيدة « صمت برهة طويلة أفكر فيما قاله لي إلى أن قطع صمتي بسؤاله : « ألم أفعلك ؟ »

نعم ، بالطبع . ولكنني عندما أتأمل تلك المجزة ، معجزة التصوير أو النحت التي يمكنها أن تجمع في جسم واحد حركة تدوم عدة لحظات ، أقول عندما أتأمل ذلك أسائل نفسي إلى أي حد يتسنى للتصوير والنحت أن ينافسا الأدب - والمرح بوجه خاص - في تسجيل الحركة . ولايسنى إلا أن أقول في صراحة إنني أميل إلى الاعتقاد أن مثل هذا التنافس لا يمكن أن يجري لشوط بعيد ، وأن رجال الرشة والإزميل لأشد قصوراً في هذا الميدان من رجال القلم ، فقال رودان :

ليس قصورنا كبيراً كما تظن . وإذا كان باستطاعة التصوير والنحت أن يهبا الأجسام الحركة في مقدورها أن يأتيها بأكثر من ذلك ؛ بل ويستطيعان في بعض الأحوال أن يجازيا الفن الراما طين في إظهار عدة مناظر متتابعة في نفس اللوحة أو مجموعة التماثيل « فأجبت :

« نعم . ولكنهم يدلسون بعض الشيء . لأنني أظنك تتكلم عن تلك الصورة القديمة التي تعرض تاريخاً شاملاً لشخص معين فتظهره

وإلى هنا لا تزال المرحلة الغرامية في مبتدأها . هذا هو المشهد الأول . وهاك الثاني : ترى إلى اليسار من ذلك زوجاً آخر . أما السيدة هنا فتقبل يد حبيبها الذى يعاونها على النهوض ، وقد أدارت ظهرها إلينا وتدلّت من رأسها ذؤابة من تلك الذوائب الشقاء الذهبية التى يصورها وآتو برشاقة ساحرة . أما المشهد الثالث فيقع إلى أبعد من ذلك بقليل . فقيه يضع الحب ذراعه حول خصر مالكة له ليجذبها إليه ويسير بها فتتلفت إلى قرنائها الذين يحيرها تخلفهم ، ولكنها لا تلبث أن تنقاد فى غير ما تأب . والآن ينزل المحبون إلى الشاطئ ويندفع الجميع إلى السفينة ضاحكين ولم يعد الرجال بحاجة إلى التوسل والتضرع ، وقد تشبّث السيدات بأذرعهم .

وأخيراً يعاون المحبون فانتاههم على الاستواء على ظهر السفينة الصغيرة التى تتأرجح على صفحة الماء كأنها الحلم الذهبى وقد أزيّنت بالأزهار وشارات خافقات من الحرير الأحمر . أما الملاحون فكيبون على مجاديفهم وهم على وشك التجديف . وثمت آلهة الحب الصغيرة تتقدمهم محمولات على أجنحة النسيم كأنما تقود المحبين إلى الجزيرة اللازوردية التى تلوح فى الأفق .

« ألاحظ يا أستاذ أنك تحب هذه اللوحة لأنك تذكر كل دقائقها . »

« انها لمنعة لا يستطيع المرء أن ينساها . ولكن هل لاحظت تطورات هذا التمثيل الصامت ؟ خبرنى بربك الآن : أيها أصدق فى تسجيل الحركات أهو المسرح أم التصوير ؟ حقاً إنه يصعب على المرء أن يقطع بقول فى هذا الأمر . فها أنت ترى أن الفنان لا يستطيع - إذا ما أراد - أن يصور الحركات العارضة فقط بل ويمثل فصلاً طويلاً على حد تعبير الفن الدراما طبق .

وليس عليه لإدراك النجاح سوى أن يضع أشخاصه بحيث يرى الناظر أول ما يرى منها أولئك الذين يبدأون العمل ، ثم الذين يمضون به ويستمررون فيه . وأخيراً يرى أولئك الذين ينهون ذلك العمل . أريد مثلاً فى التحت ؟ » وعند ذلك فتح كتاباً أخذ

عدة مرات فى أوضاع مختلفة على نفس اللوحة . فثلاً توجد بمنحرف اللوفر لوحة زيتية إيطالية صغيرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر تقص علينا تاريخ أوروبا على هذه الوثيرة . فترى فيها أول ما ترى الأميرة الصغيرة تلمب فى حقل نصير مع أربابها للواتى يعاونها على امتطاء صهوة الثور « جوبيتر » ، ثم تراها بعد ذلك مروعة وقد اختطفها الإله وغاص بها فى لجج اليم . فأجاب رودان :

« هذه طريقة بدائية على الرغم من أن بعض الفحول من الفنانين مارسوها . فثلاً عالم فيرونيز Veronese قصة أوروبا هذه بنفس الطريقة كما يتضح من لوحته الموجودة بقصر الدوقية بمدينة البندقية . ولكن على الرغم من هذا النقص فلوحة كاليارى Calari معجبة . وأنا لم أشر شئ إلى مثل تلك الطرق الصبائية لأنى لا أوافق عليها كما يمكنك أن تدرك ذلك . ولكى أجمل نفسى أكثر جلاء ووضوحاً يتحتم على أن أسألك أولاً عما إذا كنت تذكر لوحة وآتو Watteau المسماة « ركوب السفينة إلى جزيرة سايتيرا » قلت :

« إنى لأذكرها تماماً كما لو كانت نصب عيني الآن . »

« إذاً سوف لا أجد صعوبة فى الإفصاح عن نفسى . فاذا تذكرت رأيت أن الحركة فى تلك اللوحة الفذة تبدأ فى الأمام إلى اليمين وتنتهى فى الخلف إلى اليسار . وتلاحظ أول ما تلاحظ فى مقدم اللوحة شخصين هما سيدة فائقة وعشيقها اللثيم جالسين تحت الظلال الوارفة قريبين من تثال نصفى لسايريس Cypris منمق بأضابير الورد وإكليله ، يشتمل الرجل ببهاء مطرزة عليها قلب نفذ فيه سهم . وفى ذلك إشارة لطيفة إلى ما سوف يتجشمه فى هذه المرحلة الغرامية . تراه راكماً بجانبها يستميلها ويستعطفها فى حرارة ولكنها تقابل ضراغاته بفتور ربما كان مصطنعاً ، وتظاهر كما لو كانت متشاغلة عنه بمأينة التهاويل التى على مروحيتها . ويجلس بالقرب كيويد Cupid صغير فوق كنانته وقد ترمى أكثره . يرى أن المرأة قد أمنت فى التدلل والتمتع فيجاذبها قيعها ليستلين فؤادها .

أما الشهيد الثالث فيتكون من محارب قديم يترنح تحت أعباء عتاده ويجهد للحاق بهم ، إذ يتحتم على كل من يشعر من نفسه القوة أن يذهب إلى ميدان القتال . ثم هذا رجلٌ ثم قوست السنون ظهره يتبع الجنده بأدعيته وصلواته ، وتدل إشارة يده على أنه يعيد عليهم نصائحهم التي استخلصها لهم من تجاربيته الخاصة . ويتكون الشهيد الرابع من قواس يثنى ظهره التمعصل ليشد عليه سلاحه ، ومن يوق يرسل نداءه الثير إلى الجحافل ومن بنود تحقق ورماح مشرعة إلى الأمام . لقد صدر الأمر وابتدأ الكفاح فعلا .

ونرى هنا أيضاً رواية مثلت أمام أعيننا ؛ ولكن بينما لوحة « ركوب السفينة إلى سانتيريا » تذكر المرء بهزليات ماريفو marivaux فإن المارسلينز يذكره بمآسي كورنيل Corneille وإنى لا أدري أى الاثنين أفضل ، إذ أرى في إحداها من الروعة والمعبرة بقدر ما أراه في الأخرى « ثم قال بعد أن حدجنى بنظرة تحذيراً ماكرة :

« أعتقد أنك سوف لا تقول بعد الآن بأن لا قيل للتصوير والنحت بمنافسة المسرح » فقلت له : « طبعاً كلا » ؛ وفي تلك اللحظة لمحت في الكتاب الذى أعاد إليه صورة المارسلينز صورة شمسية أخرى لتتأله البديعسمى « رهائن كاليه » ثم قلت :

« ولكيما أبرهن لك على أنى أفدت من تعاليمك دعنى أطبقها على عمل من أجل أعمالك ؛ لأننى أرى إنك أنت نفسك تطبق تلك القواعد التى كشفت لى عنها . فهنا فى تتألك رهائن كاليه^(١) ، Burghers of Calais أستطيع أن أرى منظرأ متتابعاً كالذى ذكرت من أعمال واتو وروود . فالشخص الذى فى الوسط هو أول ما يسترعى النظر . وما من إنسان يشك فى أنه (يوسناك سنت بير) . إنه يحنى رأسه الجليل الذى يكمله شعر أريب طويل .

(١) الأمل فى معنى كلمة Burghers هو « نواب » ولكنى استصوبت وضع كلمة « رهائن » بدلاً منها .

يبحث فيه هنية ثم سحب منه صورة فوتوغرافية وقال : « هاك المارسلينز الذى نحتته رود ليوضع فى جانب من نصب « قوس النصر » ، ترى « الحرية وقد لبست درعا نحاسية تشق الهواء بأجنحة منتشرة وترعد فى صوت هائل : « إلى السلاح أيها المواطنون » . ترفع يدها اليسرى عالية تستحث بها الأبطال من حولها ، وتمسك بالأخرى سيفاً تصوبه نحو الأعداء . إنها بلارب أول ما تشاهد إذ أنها تسود المجموعة كلها . أما ساقاها المنفرجتان



تثال المارسلينز (صنع المثل رود)

إلتان تجملانها تبدو كأنها تجرى فتخالها نعمة أضيفت إلى هذه الأنشودة الحرية السامية . وكأننى بصوتها القوى المنبعث من فمها الحجرى يشق صماخ الأذن ، فما لك من سماع صوتها من يد ، ولم تكذب ترسل دعوتها إلى الحرب حتى تدافعت الأبطال إلى الأمام . فهذا غوطى كأن شعره لبدة الأسد بلوح بمخوذته عالياً كأنه يحى الآلهة وقد وقف ابنه الفتى الصغير إلى جانبه ممسكاً بقبضة سيفه يستعطفه ليرافقه إلى ساحة الوغى وقد بدا عليه كأنه يقول : « أنا قوى كما يجب يا أبتاه ، إننى رجل ، أريد أن أذهب معك ، فيقول له أبوه وقد حدجته بنظرة عطف وخيلاء : « تعال » .

ولا رب أن فيما ذكرت أعظم إثبات وتمضيد لأربك عن قيمة الحركة والناظر في الفن « فأجاب رودان :
لو لم يكن فيما تراه في عملي شيء من النعالة لجزمت بأنك أدركت ما هدفت إليه تمام الإدراك . لقد قدرت (رهائني) كل التقدير ورتبتهم بحق تبعاً لمقدار بطولتها . ولكيما أظهر هذه الحال بأجلى مظهر أبديت رغبتني التي ربما تعلمها بأن تثبت تماثيل الواحد وراء الآخر على بلاط الميدان قبالة سراي بلدية كاليه لتكون أشبه بحلقة حية من الآلام والتضحية . لو أنها وضعت كذلك لبدت كأنها تحيط من دار البلدية إلى معسكر ادوار الثالث ، وشعر سكان كاليه اليوم عندما يحاطون بها في غدوم ورواحهم شعوراً عميقاً بالتضامن أو الاتحاد التقليدي الذي يربطهم بأولئك الأبطال ، ولكن أتر ذلك بالغا فيما أعتقد . ولكنهم رفضوا مقترحي وأصروا على وضع التماثيل على قاعدة قبيحة بقدر ما هي غير لازمة . إنهم كانوا مخطئين ، وأنا متأكد مما أقول » . فقلت «وا أسفاه . كأنما قدر على الفنان دواما أن يجاري الأفكار السائدة . وما أسمعده لو استطاع أن يحقق طرفاً من أحلامه الجميلة » .

دكتور محمد بهجت

ليس متردداً ولا خائفاً ، يتقدم بخطى ثابتة وقد أسبلت عيناه في صلاة صامتة . وإن كان يترجح قليلاً فإنما ذلك من جراء الشدائد التي عاناها أثناء الحصار الطويل . إنه هو الذي يُلبهم الآخرين . إنه أول من تقدم من الرهائن الستة الذين يتوقف على اعدائهم انقاذ أبناء بلادهم من المذبحة المنتظرة ، وذلك حسب شرط الغزاة . أما المواطن الذي إلى جانبه فليس أقل منه شجاعة . ومع أنه لا يجوز لمصيره الخاص إلا أن شروط تسليم المدينة يسب له الماء ممضاً . وفي حين يقبض بيده الفتاح الذي يتحتم عليه تسليمه للإنجليز تراه يعلب كل جسمه كيما يجد من نفسه القوة على احتمال هذا اللعاب المحتوم . وإلى جانب هذين . وفي مستواهما ، نجد رجلاً أقل شجاعة منهما لأنه يسرع في مشيته فتقول عنه : أما وقد وطن نفسه على التضحية فإنه يتوق إلى تقصير الوقت الذي بقي على استشهاده .

ومن وراء هؤلاء يأتي رهينة آخر ممسكاً رأسه بيديه ومسلماً نفسه لياس عنيف ، ربما كان يفكر في زوجه وأولاده أو في أحيائه أو فيمن سيشتق برزئه من مماته .

وتم رهينة خامس يحرك يده أمام عينيه كأنما يحاول بذلك أن يبدد كابوساً مرعباً أناخ على روحه ... إنه يتعثر ، ولا غرو فقد روعه الموت .

وأخيراً نرى الرهينة السادس وهو أصغرهم جميعاً . تراه كأنه متردد غير مستقر ، يقبض أسارير وجهه ثم يصاب . أهو طيف حبيبته الذي يستحوز على أفكاره ؟ ولكن رفاقه يتقدمون وها هو ذا يتبعهم ماداً عنقه كما لو كان يسلمه إلى سيف القدر .

ومع أن هؤلاء الثلاثة أقل شجاعة من الثلاثة الأول فإن نصيبهم من التقدير والإعجاب لا يقل بحال من الأحوال عنهم ، لأن إخلاصهم أدعى إلى التقدير والثناء . ويكلفهم أكثر مما يكلف الآخرين .

وهكذا يتسنى للمرء أن يتابع بدقة فصلاً تمثيلاً في رهائن كاليه ، ذلك التمثيل الذي هو نتاج شعور وتأثر كل فرد منهم بنفوذ يوستاك دي سنت بيير ومقدار اقتدائه به والنسج على منواله فيراهم المرء وقد أسلموا قيادهم إليه رويداً رويداً وقد قرر الواحد تلو الآخر أن يتقدم معه إلى الموت ليدفع ثمن مدينتهم .

سلي والعبيط

وبحبي

هي قصة اليوم

قصة النفس الحائرة

قصة الأديب الشق السعيد

قصة الحياة كما هي

قصة الضحك والبكاء

دار المعارف للطباعة والنشر في ٢٧٢ صفحة

ثمنها ٢٥ قرشاً — تولى نشرها المؤلف

تطلب من : مكتبة المعارف ، والتهفة ، والانجلو ، والأهلية ،

والتجارية ، وغيرها .

المؤلف : إلياس عكاوي ١٧ شارع فؤاد الأول القاهرة

تليفون ٤٣٩٠٩